

البعد الإقناعي لأسلوبي القصّ والحواري في الخطاب القصصي القرآني -سورة آل عمران أنموذجا-

The Persuasive Dimension Of The Storytelling And Dialogue Style In The Qur'anic
-Narrative Sourat Al-Omran As Model

تاريخ القبول: 2018-01-20

تاريخ الإرسال: 2017-12-24

الدكتورة: نصيرة الوناس

أستاذة محاضرة ب

amiroucheanfale@gmail.com

جامعة امحمد بوقرة - بومرداس (الجزائر)

الملخص:

النصّ القرآنيّ نصّ معجز على جميع المستويات الشكليّة والمضمونيّة باعتباره كلام ربّ العالمين، وإذا تعدّدت أساليب البيان في النصّ القرآنيّ فقد تعدّدت معها مناهج البحث والدّراسة، التي حاولت وتحاول في كلّ مرّة كشف وجوه إعجازه، وبيان أسرار نظمه. وفي هذا الإطار تعدّ القصة القرآنيّة ملمحا من ملامح ذلك الإعجاز.

إنّ الذي يتدبّر القرآن يرى أنّه اعتمد على أسلوب القصّ بشكل كبير، حيث أفردت له السورة الواحدة، كما نعر عليه في ثنايا السور. وعلى العموم فقد ارتبط القصص القرآنيّ بالإخبار عن أحوال الأمم الماضية والنبؤات السابقة. ولكن هذا لا يعني أنّها مجرد سرد لأحداث تاريخيّة مضى عليها الزمن، أو مجرد إمتاع للنفوس، لأنّ غايتها هي إمعان التأمل وأخذ العبرة قصد الهداية، ممّا جعلها قصص متميّزة في طريقة الصّوغ، وسرد الأحداث، وتقديم الشخصيات، ورسم معالم الزّمان والمكان. ومن طرائق ذلك الصّوغ نجد البناء على أسلوب الحوار الذي تظهر في أشكال مختلفة، كالحوار الدّائيّ، والحوار الثنائيّ، والحوار بين النبيّ المرسل وقومه، أو بين الأنبياء والملائكة.

ينظر إلى القصة القرآنيّة باعتبارها إحدى أساليب الإقناع الأكثر فعاليّة في إحداث فعل التّأثير. وبالتالي يتخذ القصص القرآنيّ أبعادا تداوليّة مهمّة في الخطاب القرآنيّ. وإذا كان حديثنا عن استراتيجيّة الإقناع فإنّنا نعني بذلك الإقناع بالحجاج، حيث يعدّ الحجاج عمليّة مقصودة في ذاتها غايتها التّأثير في المتلقي وحمله على الاقتناع، بالنظر إلى ما توقّره اللّغة من وسائل وآليات.

وعليه سنحاول من خلال هذه المداخلة تبيان ماهي أهمّ استراتيجيات الإقناع التي نعر عليها في الخطاب القصصيّ القرآنيّ وتحديدًا في سورة آل عمران؟ كيف تتمظهر؟ وما هي فاعليتها في تحصيل الأثر التداوليّ المتمثّل في التّأثير والإقناع؟
الكلمات المفتاحيّة: أسلوبي القصّ والحوار في الخطاب القصصيّ القرآنيّ، أسلوب القصّ، أسلوب الحوار، الخطاب القصصيّ القرآنيّ، البعد الإقناعيّ، الإستراتيجيات الإقناعيّة في الخطاب القرآنيّ.

Abstract:

The Quranic text is miraculous at all levels -formal and substantive- Being the discourse of the lord of all the worlds, in which many ways of «elbaian» (the manifestation) are included consequently, methods of research and study have been multiplied which tried and still try to uncover its miraculous features and to reveal secrets of its systems. In this context, the Qur'anic story is one of those miraculous features.

The one who practices the Qur'an finds that he relied on the method of cutting very much, as I singled out the single sura, as we find it in the folds of the wall. On the whole, Quranic stories have been linked to news about the conditions of past nations and previous prophecies. But this does not mean it is just a narrative of historical events, or simply a pleasure of souls, because the purpose is to deepen meditation and take the lesson order to guide, this has made it

distinct stories in the way of drafting, narrating events, presenting characters, and drawing time and space.

One of the methods of this formulation is the construction of the method of dialogue, which is manifested in different forms, such as self-dialogue, bilateral dialogue, dialogue between the messenger and his people, or between the prophets and the angels.

The Qur'anic story is seen as one of the most effective methods of persuasion in influencing action. Thus, the Qur'anic stories have got pragmatic dimensions in the Qur'anic discourse. If we talk about the strategy of persuasion, we mean persuasion with argumentation, where argumentation is a deliberate process in itself to influence the recipient and convince him, given the language and available mechanisms.

Therefore, we are trying through this article to reveal the most important strategies of persuasion that we find in the Qur'anic narrative discourse mainly in the Surat Al-Imran? How does it appear? What is its efficiency in producing the pragmatic effect which are the influence and the persuasion?

Key words: The methods of storytelling and dialogue in the Qur'anic narrative discourse, storytelling ways, dialogue, the persuasive dimension, persuasive strategies in Qur'anic discourse.

1- الإطار العام للسورة: هي من السور المدنية الطوال، الثالثة في الترتيب السورّي للقرآن، عدد آياتها يبلغ المائتين. وسميت "بآل عمران" لورود ذكر قصة تلك الأسرة الفاضلة من "آل عمران" الذين عاشوا في بيت النبوة، فكانوا المثل الأعلى للإنسانية في إخلاص العبادة لله وحده، وخدمة دينه. "فعمران" والد "مريم"، ومن ذريته "عيسى" عليه السلام آخر أنبياء بني إسرائيل. كما تعكس السورة كذلك كرامات الله عزّ وجلّ لتلك الأسرة الطاهرة وبيان كيفية تأييده لأولياؤه ونصرته لهم، بما تجلّى فيها من مظاهر القدرة الإلهية على إحداث الخوارق والمعجزات بولادة "مريم" البتول وابنها "عيسى"، وولادة "يحيى" ابن "زكريا" عليهم السلام¹.

أما عن أهمّ موضوعات السورة فيمكن اختزالها في ركنين أساسيين هما:²

1- ركن العقيدة الإسلامية الذي يتمثل في إثبات الوحداية والنبوة، وإثبات صدق القرآن والردّ على الشبهات التي يثيرها أهل الكتاب حول الإسلام والقرآن بالحجج والبراهين، وتحديد الردّ على الزمرة الثابتة من أهل الكتاب وهم النصارى الذين جادلوا في شأن "مريم" وابنها المسيح الذي زعموا ألوهيته.

2- ركن التشريع الإسلامي، وخاصة ما يتعلق بالمغازي والجهاد في سبيل الله.

2- الاستراتيجيات الإقناعية في الخطاب القصصي القرآني

استراتيجيات الإقناع هي الأساليب الموظفة في القرآن لإقناع النفوس بأنواعها (من نفس مؤمنة، إلى نفس كافرة، إلى نفس مترددة)، والوصول بها إلى توفير سبل الهداية.

يزخر الخطاب القرآني بأساليب متنوّعة ذات فعالية قصوى في إحراز الأثر التداوليّ المتمثل في الإقناع، وهي على أنواع وأشكال مختلفة بدء بالإقناع بالحرف والكلمة والتّركيب، إلى الإقناع بأنماط الأساليب التي تراوحت بين التّرجيب والتّرهيب، إلى الإقناع بالمنطق السليم والاستناد إلى البرهان القويم بطريق القصص والتّمثيل والتّصوير والحوار.

نودّ في البداية قبل التّفصيل في الموضوع تحديد مفهوم الإقناع وعلاقته بالتأثير. فالإقناع «عملية فكرية وشكلية يحاول فيها أحد الطرفين التأثير على الآخر وإخضاعه لفكرة ما»³. وهذا يعني أنّه فعل متعدّد الأشكال يتمّ بأكثر من

أسلوب، نسعى من خلاله لإحداث تأثير على المعتقدات والسلوك. والقوة المستعملة هنا هي الحجّة والمنطق. أما بالنسبة للتأثير فهو «إبقاء الأثر في الشيء أو ترك علامة عليه»⁴.

وبناء على ذلك يكون الانفعال أو إبقاء الأثر أقرب إلى التأثير، ممّا يجعله ذا صلة وثيقة بالسلوك عن طريق فعل الشيء أو تركه. في حين يكون القبول والرضا أقرب للإقناع. ممّا يجعله ذا صلة وثيقة بالفكر والعاطفة. ضف إليه أنّ الإقناع يتأتى بطريق الحجج والبراهين.

وعلى الرغم ممّا توحى إليه دلالة كلّ مصطلح إلاّ أنّ بينهما صلة وثيقة، من منطلق أنّ الإقناع قد يؤدي إلى التأثير، بحكم أنّ الإقناع بفكرة معيّنة قد ينجّر عنه القيام بسلوك معيّن أو تعديل هذا السلوك.

2-1- أسلوب القصّ

2-1-1- القصص الواردة في السّورة: يمكن تلخيصها في: قصّة "امرأة عمران" التي ارتبطت بولادة "مريم"، وقصّة النبيّ "زكريا" التي ارتبطت بولادة "يحيى"، وقصّة "عيسى" عليهم السّلام.

2-1-1- قصّة امرأة عمران- ولادة مريم: هي قصّة تحوي ثلاثة مشاهد أساسيّة:

- المشهد الأوّل: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ (آل عمران). مرتبط بفعل القول (إذ قالت) حيث ينتظر السّامع المقول أو ناتج فعل القول. المتحدّثة هنا "امرأة عمران". ومقول القول دعاء توجّهت به إلى الله، ممّا يفيد أنّها امرأة مؤمنة بالله «وفي هذا إظهار لأوصاف الشّخصية التّامة»⁵. كما أنّ في دعائها إيثار لجانب الله على حبّ الشّهوات.

- المشهد الثّاني: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِلَكَ وَدُرَيْبَتِهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ (آل عمران). يُستهلّ هذا المشهد بالوضع - أي وضع الحمل - والأکید أنّ هناك فاصل زمينيّ بين مدّة الحمل والوضع، هو ما اختزله الخطاب القرآنيّ. ثم إنّ الآية الدّالة على المشهد هي أيضا مقول القول. فالخطاب في كلتا الآيتين موجّه لله تعالى، فيه إخبار عن نفسها. ولكن مفاجأة وضعها لأنثى صدمت أملها في الإيفاء بالتّذر وتحقيق وعدها مع ربّها في أن تهبها خادمة لبيت المقدس، لذلك نراها وظّفت هاء التّأنيث للتدليل على الأنثى، ثم إنّها تُشهد الله على ما وضعت وإن كان الله أعلم بما وضعت. ممّا جعل الإخبار يخرج لإفادة التّحسّر على فوات المأمول. وفي دعائها (سميتها مريم وإني...) تظهر آملها في المولود وهي عبادة الله⁶. كما أنّه يعكس سمات البيئة العقيدية ويظهر العادات. وبهذا تكون القصّة هنا ترجمة للحياة بكلّ تفاصيلها وجزئياتها، عملت على تجسيد الوقائع أو الأحداث الخارجيّة والمشاعر الدّاخلية التّفسيّة.

- المشهد الثّالث: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقُبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ (آل عمران). يُظهِر هذا المشهد استجابة الله لدعاء "أمّ مريم" وقبوله لها خادمة لبيته تعظيما لشأنها، فكانت الأنثى الوحيدة التي تخدم بيت المقدس. ثم كفالة "زكريا" لها الذي وقع عليه الاختيار هو كرامة "لمريم" من باب إنباتها نباتا حسنا⁷. مع الإشارة إلى ما أحيطت به كرامة الرزق.

2-1-1-2- البعد الإقناعي للقصة: تعكس هذه القصة جوانب بلاغية هامة هي جزء من بلاغة القرآن ككل، المعجز في نظمه. ففي قول "امرأة عمران" (وليس الذكر كالأنثى) فيه قلب للمعنى، أو عكس للمبنى، كونها لم تلد ذكرا حتى تبتدئ به الخطاب «وهذه بلاغة في الحكاية، كما أنّها بلاغة في الصياغة، فهي وإن خالفت المنطق اللغويّ أو اللغة المنطقية قد حققت المنطق النفسي والموقف الشعوريّ في الواقع المحكيّ وفي السرد القصصيّ أو القصص الحواريّ»⁸. وهذا ما يضمن للقصة التأثير في العقل والتفكير، ويضفي عليها سمات البقاء والاستمرارية على مرّ الزمن. وما استهلّت به الآية السابعة والثلاثون ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ فيه جواب من الله كونها متصلة بدعاء "امرأة عمران" ﴿فَتَقَبَّلَ مِنِّي﴾. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ متصل بتسميتها "مريم" وبالإعادة. ويدخل في إطاره كفالة "زكريا" لها باعتبارها مظهر من مظاهر الإنبات الحسن، كيف لا وهو نبيّ من أنبياء الله. و«رواية القصة هنا وما بها من مفاجأة ووحدة تستدعي وصف الله بصفتي السمع والعلم، ليكون ذلك بمثابة التوثيق والتقريب لقصّ هذا اللّون من القصص الذي يعتمد على الأسرار والغيبات والكرامات والمعجزات»⁹. وهذا ضرب من ضروب إعجاز القرآن ودقته في انتقاء الألفاظ ووضعها للموضع الملائم لها. وفي جواب "مريم" كذلك ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يظهر مغزى جديد في هذا التعقيب يتصل بسمع الله وعلمه، كما يتصل بإنبات "مريم" نباتا حسنا.

وباستقصاء ذلك يمكن أن نلمس الغرض الديني للقصة المتمثل في بيان كيفية تأييد الله لأوليائه الصالحين وإكرامهم لهم.

الملاحظ على فصول القصة أنّها جاءت متلاحمة مترابطة، تمّ وصلها لغويًا بالفاء، حيث بدء الفصل الثاني والثالث منها بالفاء، ممّا خلق تسلسلا للأحداث. ثمّ إنّ "مريم" كانت مدار الحديث في كلّ الفصول، ولا غرابة في ذلك، لا سيما وأنّ القصة في الحقيقة هي قصة "مريم" قبل أن تكون قصة أمّها، وما "مريم" إلا امتداد لأمتها، وما أمّها إلا مهّدة لها¹⁰.

2-1-1-3- قصة زكريا- ولادة يحيى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۗ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۗ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ۗ﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا ۗ مِنَ الصَّالِحِينَ ۗ﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۗ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۗ﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ۗ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا زَمْرًا ۗ وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ۗ﴾ ﴿٤١﴾ (آل عمران). تبتدئ الآيات بكلمة (هنالك) التي خلقت تماسكا بين هذه القصة وسابقتها، كون دعاء "زكريا" كان ناتجا عمّا رآه من إكرام الله "المريم"، وتقبّلها بقبول حسن، وإنباتها نباتا حسنا نتيجة دعاء أمّها. كل ذلك دفعه لدعاء ربّه متيقنا من قبول الدعاء، فكان جزاءه بعدما أخلص نيته في الدعاء أن ﴿نَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا ۗ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. وهي بشرى بولادة "يحيى" عليه السلام. كما وقع تعريفه بالعلامة التي يعرف من ورائها وقوع ما بشر به زيادة في اطمئنانه¹¹.

وبالتالي فالقصة هنا هي قصة مستأنفة، سيقت في تضاعيف قصة "مريم" وأمها «لما بينهما من قوة الارتباط، وشدة الاشتباك، مع ما في إيرادها من تقرير ما سيقت له قصة مريم وأمها من بيان اصطفاء آل عمران»¹². لذلك تمحور غرضها الديني مثل غرض سابقتها في بيان كرامات الله عز وجل لتلك الأسرة الطاهرة.

وبحكم مضمون القصتين يمكن عدّهما تمهيديتين لولادة المسيح عليه السلام، فهما قصتان داخل قصة واحدة.

2-1-1-4- البعد الإقاعي للقصة: إن المغزى في ولادة "يحيى" تتمثل في الردّ على سؤال "زكريا"¹³ ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ التي تجلّى كمال قدرته تعالى في الخلق. لذلك لا يحمل سؤال "زكريا" حين دعا ربه بالولد ﴿قَالَ رَبِّ أُنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ على الإنكار، إذ لو أنكر قدرة الله لما سأله ولما دعاه. لذلك قد يحمل الاستفهام هنا على الاستعلام والاستخبار، لأنه لم يكن يدري أنه سبحانه وتعالى سيرزقه الولد عن طريق زوجته العاقرة، أو هو على سبيل التعجب والسرور بهذا الأمر العجيب، أو هو استفهام لاستبعاد ما جرت به العادة من أن يأتي الغلام مع تقدّم سنّه وسنّ زوجته¹⁴.

والملاحظ على هذه القصة أنّ خاتمتها مفتوحة، فهي على قصرها كانت إلى الأقصوصة أقرب منها إلى القصة - كما يرى الصابوني - كونها تدور حول جزئية واحدة، وفي المقابل يمكن اعتبارها قصة كاملة وإن كانت خاتمتها مفتوحة، لأنها تحمل على التشويق والتساؤل والترقب للمصير، وكونها كذلك فقد أوفت بالغاية، كما أظهرت الهدف المتجلي في قدرة الله على الخلق في ظل غياب الأسباب والمسببات، تمهيدا لولادة "عيسى" عليه السلام. وهنا يظهر الدور الحاجي لهذه القصة التمهيدية التي يمكن اعتبارها «امتدادا واستطرادا للقصة الأولى، وتمهيدا وتوطيدا لولادة المسيح عيسى بن مريم»¹⁵.

2-1-1-5- قصة إعداد مريم - ولادة عيسى: هي قصة يمكن توزيعها على مشاهد:

- المشهد الأول: يتمثل في إعداد مريم ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُتْلُونَ أَقْلَامُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ (آل عمران). بُدئت الآية الكريمة بالاصطفاء، ثم وضحت مظاهره. وهي في الحقيقة بشرى "لمريم" أنّ الله اصطفاها وطهرها وارتضاها لتكون أهلا للعبادة والطاعة. وفي مقابل ذلك التشريف والتكريم هناك تكليف لها بالقنوت والسجود والركوع ف«إذا كانت الآية الأولى مبيّنة لمظاهر التبشير والتشريف، فإنّ الآية الثانية متضمنة لمظاهر التوجيه والتكليف»¹⁶.

- المشهد الثاني: حملها "بعيسى" عليه السلام ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أُنِّي يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرئِي الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۖ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۖ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ ۗ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾. هنا ينقلنا الخطاب القرآني من الحديث عن "مريم" المولودة إلى الحديث عن "مريم" الوالدة؛ حيث كانت إرادة الله أن يقيس صبرها وثقتها به فحملت دون أب، ومع إيقانها بقدرة الله المطلقة سألت الله سؤالاً تعجبياً ما إذا كانت المرأة تحمل دون أب، وبما أنه سؤال منتظر منها فقد أردفه الجواب بأن الله يخلق ما يشاء وأن أمره بين الكاف والتون ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۖ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، فما كان منها سوى الخضوع لأمر الله. «وهذا السؤال وهذا الجواب كلاهما يلتقي في جوهره بسؤال زكريا وبالإجابة عنه، مما يحقق معنى النظم في سياق هذه المجموعة من قصص آل عمران»¹⁷. ثم أعقبت الآية بذكر صفات المسيح ومعجزاته النبوية لا الإلهية؛ حيث «وصفه الله بصفات لازمة له ومتجددة معه تدور حول التكريم له والتعظيم في حدود كونه رسولا، وعلى شرط الاعتقاد بأنه عبد الله وكلمته حتى لا يخرج التكريم عن حدوده، وحتى لا يخرج التعظيم عن شروطه»¹⁸. وهي في مجملها أدلة قاطعة تدل على نبوته عليه السلام.

والقصة بمشهدها الأول والثاني قصة مفيدة شائقة، ثم هي بهذا التشويق تحتاج إلى تمة، ومن ثم اقترنت تتمتها بالفاء ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ لتأكيد الربط وتقوية السياق¹⁹.

-المشهد الثالث: حياة المسيح في بني اسرائيل ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿٥٣﴾ وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ اذْهَبْ إِلَى الْيَهُودِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا كَفَرْتَ عَلَيْهِمْ وَأَعِدُّوا لَهُمْ أَعْدَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَتَلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۗ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۗ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٦٣﴾. (آل عمران). ما أعقب القصة بعد ذلك حياة المسيح في بني اسرائيل، الذي يعكس تطوّر الأحداث وتأزمها بعدما ﴿أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾، حينها بحث عن نصير له ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿٥٣﴾ وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ ﴿٥٤﴾ فكانت نهاية كفرهم ومكرهم أن مكروا بعدما هموا بقتله وصلبه. بعدها شاءت العناية الإلهية أن يرفعه الله إليه ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ اذْهَبْ إِلَى الْيَهُودِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا كَفَرْتَ عَلَيْهِمْ وَأَعِدُّوا لَهُمْ أَعْدَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَتَلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۗ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۗ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٦٣﴾.

بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٩﴾. هناحل للعقدة من خلال بيان مكر الله الذي أبطل به سعي اليهود²⁰، وتقرير حقيقة "عيسى" عنده والردّ على مطاعن الطّاعنين في نسبه وبعثته ﴿٥٩﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٠﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾.

أما إذا جئنا للحديث عن الغرض الدّينيّ للقصة، فإننا نجد في مقابل بيان كيفية تأييد الله لأنبيائه ذكر مصارع الكافرين التي ينبغي أن تشكّل موضع عبرة. بالإضافة إلى بيان نسبه (عيسى) عليه السّلام.

2-1-1-6- البعد الإقناعي للقصة: لما ذكر تعالى ولادة "يحيى" من عجز عاقر وشيخ مسنّ، وذلك بمقتضى السنن الكونيّة خارق للعادة، أعقبها بما هو أبلغ في خرق العادات، فذكر قصة ولادة المسيح من غير أب وهو أمر أعجب من الأوّل.

إنّ مولده عليه السّلام فيه إعجاز تتجلّى فيه قدرة الله الذي خلقه من غير أب، وهو مولد خلق شبهة تأليهه، ف«شخصيّة عيسى -عليه السّلام- شخصيّة ثار حولها جدل عظيم، واختلف الناس حولها اختلافا شديدا، وافترق أهل الكتاب حول حقيقته إلى فرق ضاعت كلّها وهلكت بين الإفراط والتّفريط، وكان السّبب في ذلك أنّهم لم يفقهوا حكمة ولادته -عليه السّلام- من أمّ دون أب»²¹، لذلك تعدّدت آراء اليهود والنّصارى فيه؛ حيث قالوا بألوهيته، وبأنّه ابن الله، وبأنّه وأمه إلهين. فكانت قصّته من بين القصص التي فصل فيها القرآن، وقدم حولها تفاصيل هامة بخصوص نسبه أو مولده، ودعوته، ومهمّته، بغية الكشف عن جوانب شخصيّته، وحقيقة نبوّته. وبالتالي كان الغرض من ذكر القصة «الردّ على النّصارى الذين ادّعوا ألوهيّة عيسى، فذكر ولادته من مريم البتول ليدلّ على بشريّته، وأعقبه بذكر ما أيّده به من المعجزات ليشير إلى رسالته، وأنّه أحد الرّسل الكرام الذين أظهر الله على أيديهم حوارق العادات، وليس له شيء من أوصاف الرّبوبيّة»²². ولعلّ ذلك ما يفسّر ختام القصة بتلك التّهاية المعبرة عن الحقيقة ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۚ﴾.

إنّ إيراد تلك التّفصيل والأحداث بما تضمّنته من دلائل منطقيّة بعيدة عن الغموض والتّضارب، فيه قوّة إقناع نابعة من سلامة المنطق ووضوح الرّؤية.

وإذا كانت قصة "عيسى" عليه السّلام تجمع بين قصص الصّالحين والطّالحين، فإنّ من شأن هذه المقابلة أن تجعل القارئ مأخوذا بين الوعد والوعيد، والخوف والرّجاء، والتّحذير والتّبشير.

2-1-2- البنية الوظيفيّة للقصص: هي بنية يمكن استخلاصها من العناصر السّابقة:

- يبدأ السّياق القصصيّ بمقدّمة تحدّد اتجاه القصة منذ البداية (مقدّمة تمهيدية، مسألة الاصطفاء)؛ حيث بدأت بذكر ملخص لها أعقبه التّفصيل. وفي هذه الحالة وكأنّ المقدّمة تساق لمتابعة أحداث القصة، وصولا إلى الغاية التي سبقت الإشارة إليها.

- هي قصص ذات مضامين إعجازيّة.

- تشكّل المجموعة القصصيّة ككل من متواليات وظيفيّة (جملة الأحداث).

- هناك وظائف ثابتة في مجموعة القصص، عملت على توجيه المتن الحكائي نحو خدمة مقاصد دينية معينة.

- القصص حوارية يتماهى فيها الخطاب البشري مع خطاب الله تعالى.

- هي قصص فيها عرض لتجارب النفوس البشرية.

- تراوحت القصص في مجملها بين التفصيل، مثل قصة "مریم" التي عرضت مولدها وكفالتها ونشأتها. وقصة "عيسى" التي عرضت منذ الحلقة الأولى وحتى نهايتها مولد "عيسى" ونشأته بين قومه ومعجزاته وعاقبته. في حين نصادف الإيجاز فيما تعرضه القصة الأولى من معطيات عن "امرأة عمران"، إضافة إلى عرض حلقات عن "زكريا" وولادة "يحيى" عليهم السلام.

وخلاصة الكلام في ذلك أننا لا نصادف إلا ذكرا لجانب واحد من جوانب القصة هو الجانب الذي يخدم الغرض الديني المقصود.

2-1-3- البعد الإقناعي للقصص: إن هذه القصص الثلاث وإن تعددت مضامينها واختلفت إلا أنها تصب في معين واحد، وتخدم غرضا دينيا واحدا.

2-1-3-1- أهمية القصص وبعده التأثري

من مظاهر الإعجاز القصصي في هذه النماذج المحقق لعنصري التأثير والتأثير ذاك التظم المعجز للقصص، التي نراها تستهل بتقنية تأخير نقطة الانطلاق²³؛ عن طريق الإيجاز لما سبقت له القصص التي جاءت لتدعم تلك الحقيقة الممهدة؛ حيث نراها تعرض في البداية لفكرة الاصطفاء ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾؛ أي أنه اختار للنبوّة صفوة خلقه، منهم "آدم" أبو البشرية، و"نوحا" شيخ المرسلين، و"آل ابراهيم" وهم "اسماعيل وإسحاق"، والأنبياء من أولادهما، ومن جملتهم خاتم الأنبياء "محمد"، و"آل عمران" ومنهم "عيسى" خاتم أنبياء بني اسرائيل، بما تحمله الفكرة من إعداد أوّلٍ أو تمهيدٍ لقبول الأفكار الآتية، أو فنقل المعجزات الإلهية لهذه الأسرة الطاهرة، التي هي بمثابة كرامات لها، والردّ على مزاعم اليهود الذين اتهموا "مریم" بارتكاب الفاحشة، الأمر الذي وصفه الله بالبهتان في قوله: ﴿وَبَكَفَرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ ﴿١٥٦﴾ (النساء). فالقرآن وهو يعرض القصة بذاك الشكل الدقيق المتكامل الصادق «لكي يقنع السامعين دون عناء أنّ مریم لا يمكن إلا أن تكون طاهرة عفيفة شريفة، وفي ذلك أبلغ ردّ على أكاذيب اليهود»²⁴. ضف إلى ذلك ما تحيل إليه ظاهرة الاصطفاء لعباد معينين من نفي إخراجهم من مرتبة العبودية إلى مقام الأولوية، فلا يصحّ أن يعبد هؤلاء من دون الله²⁵.

كما ورد في القصة الردّ على مزاعم النصارى ببيان العقيدة الصحيحة في أمر "عيسى" استنادا إلى أدلة عقلية يستسيغها كلّ ذي بال، من ذلك أنه تبارك وتعالى قرن شأن "عيسى" المولود من غير أب بشأن "آدم" المخلوق من غير أب ولا أم، وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۗ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٥٩﴾. فكون "عيسى" عليه السلام قد ولد من غير أب لا يلزم عقلا أنه ابن لله «لأنّ الله بقدرته يفعل ما يشاء، وقد خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من غير أم، وخلق الناس جميعا من أمّ وأب، وخلق عيسى من أمّ بدون أب»²⁶. فكان لتلك المقابلة؛ أي مقابلة مولد "عيسى" بمولد "آدم" بعدا حججيا.

وتأكيدا لقدرة المطلقة في الخلق من العدم، أو في حال انعدام الأسباب، يشير تبارك وتعالى في سياق الحديث عن ولادة "مریم" ونشأتها إلى منّ الله "بيحي" على "زكريا" عليه السلام، مع انعدام أسباب الإنجاب عنه كونه بلغ من الكبر عتياً وزوجه عاقر، زيادة في التقرير والإقناع.

فالملاحظ هنا أنّ الانطلاقة في القصص كانت من المدرك الحسي إلى المدرك العقلي المتمثل في تجلّي القدرة الإلهية المطلقة. ونظرا لبعدها التأثيري المتمثل في تنبيه الفكر عن طريق الملاحظة، وإثارة العواطف بما سردته من أخبار الأمم الماضية، وبيان عظمة الإله كان لا بدّ لها أن تعتمد على منهج عرض محكم للأحداث، هو ما توفّر فيها أصلا. والملاحظ كذلك أنّ تمهيد القصص يشبه ما ختمت به تلك القصص، التي بدت باصطفاء الله "آدم" وختمت بتشابه "عيسى" و"آدم" في الخلق، ممّا خلق انتظاما فنياً.

ثمّ إنّنا نلفي أنّ جوّ البشارة هو السائد في مجموعة قصص "آل عمران" «وهذا يوجد روح التصميم ويحقّق معنى النظم ومظهر التنظيم»²⁷، بدءاً بالبشرى الإلهية "لامرأة عمران" بقبول "مریم" لخدمة بيته تشريفا وتكريما لها حتى وإن كانت أنثى، ثم بشرى الملائكة "لزكريا" "بيحي" عليهما السلام، وبشرها كذلك "لمريم" بالاصطفاء والطهارة تمهيدا لبشارتها "بعيسى" عليه السلام. ثم أخيرا بشارة الله "لعيسى" عليه السلام بعدما مكر به كفّار قومه أنّه مخلصه من شرهم وكيدهم بأن رفعه إليه.

ثم ما عمل كذلك على تحقيق معنى النظم في سياق هذه المجموعة القصصية مسألة السؤال والجواب التي بنيت عليها القصص، وهي أسئلة انبثقت عن سياق مقاميّ مشترك هو التّديل على قدرة الله عزّ وجلّ على الإيجاد والخلق؛ على غرار ما نصادفه في سؤال "زكريا" "لمريم" كلّما دخل عليها المحراب ووجد عندها رزقا ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا﴾. ثم سؤال "زكريا" لما بشرته الملائكة "بيحي" ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾. وأخيرا سؤال "مریم" عندما بشرتها الملائكة "بعيسى" ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشْرٌ﴾.

انطلاقا من ذلك تظهر ماهية الفنّ في القرآن أنّه «إبداع في العرض، وجمال في التنسيق، وقوة في الأداء»²⁸ ترقى إلى مستوى الإعجاز الذي لا يمكن أن يحاكيه البشر. وفي هذه الحالة يتّخذ الجانب الفنيّ كأداة للتأثير الوجداني، والاستمالة العاطفية، وإدراكه فيه دفع للنفس لتلقّي الأثر الدينيّ²⁹. ونخصّ بالحديث هنا القصة باعتبارها أهمّ فنون القول وألوان البيان.

وإذا كان الأمر كذلك فإنّ القصة القرآنية في هذا المقام لا ينظر إليها باعتبارها عملا فنيا مقصودا لذاته، مستقلا في موضوعه وكيفية عرضه، بقدر ما ينظر إليها باعتبارها وسيلة للتوجيه والتلقين والموعظة المتأبّية عن طريق «التأمل فيما جرى ومعرفة مصير المكذّبين وعاقبة المؤمنين»³⁰. وعلى هذا الأساس يمكن النظر للقصة هنا كفعل توجيهي.

ومن جهة أخرى فقد أعطى الخطاب القصصيّ للصيغة التعبيرية أهمية فائقة حتى كانت لغتها لغة حجاجية؛ حيث يمكن أن نلمس ذاك البعد التداوليّ في الخطاب التّأدّبي "لامرأة عمران" مع ربّها، و"لزكريا" و"مریم"، و"عيسى" مع قومه (استهلّ دعوته بالترغيب) ممّا يثبت لنا فكرة مفادها أنّ الأنبياء المرسلون والصالحون عامة «كانوا يربّون

ويعلمون بأعمالهم وأخلاقهم وحسن أدبهم أكثر مما كانوا يرون ويعلمون بخطبهم وأقوالهم وإصدار الأوامر إلى أتباعهم»³¹. يضاف إلى ذلك بناء القصة على عنصر التشويق، والدقة في العرض.

والأكثر من ذلك يقدم القرآن دليلاً آخر على صدق نبوة محمد عليه السلام، وهذا غرض من أغراض القصة التي لا تقف عند حدود سرد الأحداث التي تثبت طهارة "مريم" وعفتها، ولكنها تقرن ذلك بالإشارة إلى حدث أو واقعة لم يكن السلف على دراية سابقة بها، لأنها من أنباء الغيب. من ذلك واقعة إجراء القرعة بين رجال الدين على كفالة "مريم" واستئثار "زكريا" بها، وهو المعنى المستفاد من قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُتْلُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ (آل عمران). هنا إشارة إلى الإعجاز الغيبي في القصص القرآني و«إقامة الأدلة على أن هذا القرآن من عند الله تعالى وأن ما اشتمل عليه من قصص السابقين لم يكن للرسول صلى الله عليه وسلم علم به، ولم يكن أيضاً لغيره علم صحيح به»³². ضف إليه معرفة نسب "عيسى" عليه السلام، حيث كان الوحي سبيل النبي محمد عليه السلام في معرفة قصته.

وإذا كانت هذه القصص تعرض وقائع تاريخية فإن عرضها في صورة فنية لا ينفي صدقها، لذلك نراها قد زاوجت بين الإثارة والمتعة، مع تحقيق العبرة التي تعتبر مغزى القصة³³. ثم معرفة نسب "عيسى" حيث كان الوحي سبيل النبي محمد عليه السلام في معرفة قصته. فلا مناص - إذن - من اصطباغ تلك الحقائق التاريخية بصبغة جمالية.

فإذا كانت تلك القصص القرآنية صورة صادقة لقيم الإنسان والوحدانية وسمو الأخلاق ورفعته، فإنها قصص يتزاج فيها الصدق الواقعي بالصدق الفني بهدف تحريك الوجدان، ومن ثمّة مدارك العقل في استقصاء العبر. وهذا وجه من وجوه الإعجاز؛ «حيث تحوي القصة جميع الخصائص الفنية، وتجمع كل المزايا الجمالية، وتضمّ العديد من الأهداف الواضحة المحددة، مع الالتزام الكامل بعرض الوقائع دون تزيد أو اختراع، والحديث عن الأشخاص كما كانوا وذكر ما قالوا دون تقوّل أو ابتداع»³⁴.

وبالتالي لما كانت النفس البشرية مفطورة على الميل لكل ماهو جميل مؤثّر من قبيل القصة، لما لها من أثر في إشهار المشاعر وتحريك العواطف وهي وسيلة للتلقين، والتوضيح والتوجيه، والإرشاد، وقرع الأسماع، وإخراج العقول من البلادة، وصرفها إلى التفكير والتأمل والإقبال والإدبار»³⁵، نقول لما كان الأمر كذلك فقد أفرغت معاني القرآن في قوالب أسلوبية قصصية تأنس لها النفوس، وتدعن لها العقول، نظرا لما تحويه من قيم عقائدية صيغت في قالب جمالي، أو بتعبير آخر فقد أخذ الأداء الفني للقصص القرآني كمطية لبلوغ الهدف الديني المتمثل في إرساء دعامة التوحيد، وإجلاء مظاهر القدرة الإلهية، وهداية الخلق، والانتفاع بهذه الهداية وبلوغها. ونلمس ذلك الختام الفني الديني في نهاية القصة متجلياً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٦٢﴾ (آل عمران). ولا غرابة في ذلك خاصة إذا علمنا أن القصة «وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية، ولما كان القرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء فإن القصة هي إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها»³⁶ كونها تعكس نواحي دينية وروحية وقيما إنسانية، لها كبير الأثر في توجيه السلوك كما هو الحال مع

"امرأة عمران"، و"مريم" ابنة "عمران"، و"زكريا" عليهم السلام. وعليه فإن تلك التماذج القصصية نراها تحسن «بمقدار ما تجمع من خصائص ومزايا فنية وأدبية وبمقدار ما تحوي من أهداف تربوية وتوجيهية»³⁷.

وإذا كانت تلك التماذج القصصية ذات بعد تأثيري، كون الأخبار الواردة فيها تنقل خبرا معينا يرتبط بغيره من الأخبار، التي تلتقي في مجموعها لتؤدي معنى معينًا، ومن ثمة تعمل على إحداث تأثير كلي في متلقي القصة³⁸ ألا يمكن بعد ذلك اعتبار ذاك المجموع القصصي كفعل كلامي كلي (توجيهي)؟

وبناء على ما سبق كان القصص القرآني أحسن القصص بشهادة القرآن نفسه، كيف لا وهو كلام رب العالمين ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقُصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾ (يوسف). فيه من العبر والحكم ولطائف العجائب ما ليس في غيره.

2-1-3-2- أسلوب الترغيب والترهيب وبعده التأثيري: يعدّ الترغيب والترهيب من أنجع الأساليب القرآنية الموظفة في الدعوة إلى الله، لاعتماده على عنصري الجزاء والعقاب اللذين يشكّلان عاملين أساسيين للإقبال على فعل الشيء أو تركه.

❖ **- الترغيب:** هو «وعد يصحبه تحبيب وإغراء بمصلحة أو لذة أو متعة مؤكدة خالصة من الشوائب، مقابل القيام بعمل صالح، أو الامتناع عن لذة ضارة، أو عمل سيء، ابتغاء مرضاة الله، وذلك رحمة من الله لعباده»³⁹.

انطلاقاً من هذا التعريف فللترغيب أهمية كبيرة في أداء الطاعات، لأنه يقوم أساساً على استشارة ما في النفس من الميول المختلفة حتى يوجّه اهتمامها نحو ما يعرض عليها من ثواب تسعى لتحصيله. وإذا حاولنا استقصاء تلك الأبعاد التأثيرية لهذا الأسلوب في التماذج القصصية المدروسة سوف نجدتها تتلخّص في العناصر التالية:

- الترغيب في الإيمان والسير على خطا المؤمنين في تحصيل الطاعة والعبادة. أو الترغيب في الاقتداء بتلك الفئة من البشر. وهو على وجه التحديد ترغيب غير مباشر للمؤمنين العابدين بإخلاص الدعاء وحسن الظن بالله، وحسبنا في ذلك ما سارت على نهجه "امرأة عمران" و "زكريا" نبي الله لما توجهها إلى الله بالدعاء متيقنين من الإجابة. فكان الحاصل أن كان الله لهما عوناً مجيباً في منحهما ذرية طيبة.

- الترغيب في التدبّر في مخلوقات الله، وعلى وجه التحديد التدبّر في آية من آياته هي خلق الإنسان من العدم، أو خلقه في ظلّ غياب المسببات.

- الترغيب في اتباع المرسلين وتصديق بعثتهم والإيمان بنبوّتهم على غرار نبوّة "عيسى" عليه السلام.

❖ **- الترهب:** هو «وعيد وتهديد بعقوبة تترتب على اقتراف إثم أو ذنب مما نهى الله عنه، أو على التهاون في أداء فريضة مما أمر الله به، أو هو تهديد يقصد تخويف عباده به وإظهار صفة من صفات الجبروت والعظمة الإلهية، ليكونوا على حذر من ارتكاب الهفوات والمعاصي»⁴⁰. وله فنون متعدّدة على غرار الوعيد والإنذار.

نصادف هذا النمط الأسلوبي في حياة "عيسى" مع قومه. فبالترغم مما أيّده الله به من معجزات خارقة كانت بمثابة الدليل القاطع على نبوّته، فإن الكثير من بني اسرائيل لم يؤمنوا به، بل أكثر من ذلك عزموا على قتله، ليتحوّل أسلوب الدعوة من الترغيب مثلما تدلّ عليه الآيات ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي

أَخْلُقْ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَأُتْرِي الْأَكْمَةَ وَالْأُبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَا حِجْلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۗ وَحِجَّتُمْ بآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رَسُولَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ (آل عمران) إلى تهريب بعدما أيقن "عيسى" عليه السلام تصميم اليهود على الكفر والاستمرار في الضلال وإرادتهم قتله، فاستتبع استمرارهم ذلك على الكفر تغيير نبرة الخطاب إلى الوعيد والإنذار والتهديد، في مقابل توظيف أسلوب الترغيب في دعوته لأنصاره إلى الله من الحواريين ممن صدقوه واتبعوه. وهذا ما يتجلى في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ۗ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ نَزَّلْنَاكِ مِنَ السَّمَاءِ بِالسُّورَةِ وَأَمْطَرْنَا الْهَاجِلَ مِنْ هَبْلٍ لَّيْلَةٍ لَّا يَنْصُرُكَ مِنْهُ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ۗ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ أَكْفَرُ مَا كَفَرُوا ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يَجِبُ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾. وعلى العموم تتجلى الأبعاد التأثيرية لأسلوب التهريب في التماذج القصصية في:

-تهريب من غضب الله ونقمته وتخويف العصاة.

-تهريب من الكفر وقتل الأنبياء.

-تهريب من اتباع الكفار من أهل الكتاب المجبولين على كتمان الحق الذي جاءت به التوراة والإنجيل لتجنب الوقوع في ضلالهم ومكرهم.

-تهريب من الافتراء على الله.

2-2-أسلوب الحوار

2-2-1- أشكال الحوار: الحوار عنصر مهمّ ضمن الهيكل البنائي العام للقصة. وهو أسلوب من الأساليب

القرآنية «يحكي محاورة كلامية بين طرفين أو يخبر عنها، هادفا إلى بيان معان إسلامية مقصودة ومحددة»⁴¹.

وإذا كان «لا يمكن لأسلوب العرض التقريري أن يغني عن الحوار في بعض المواقف، فهو أداة التعبير المباشر عن

الشخصية، والحوار يوضح ملامح الشخصية الإنسانية ويعبر عن أسلوبها وطبيعتها ويكشف خفايا تلك الشخصية

الإنسانية من حيث الاستعدادات والانفعالات...»⁴². ونظرا لأهمية الحوار في عرض مجريات القصة، فقد استعانت

التماذج القصصية الموجودة بين أيدينا بضرب من ضروب الحوار ألا وهو الحوار الخارجي الذي «يدور بين شخصين

أو أكثر في إطار المشهد داخل العمل القصصي بطريقة مباشرة، وأطلق عليه تسمية الحوار التناوبي؛ أي الذي تتناوب

فيه شخصيات أو أكثر بطريقة مباشرة، وذلك أن التناوب هو السمة الإحداثية الظاهرة عليه»⁴³. وقد تظاهر هذا

الضرب من الحوار في شكلين أساسيين هما:

1- حوار ثنائي: أي كلام بين اثنين بهدف المناجاة أو الطلب أو التوضيح وغيرها. وهو حوار واضح الملامح في التماذج القصصية، نذكر منه:

- حوار "امرأة عمران" مع رب العالمين: الذي يبيّن أنّ أولياء الله يحاورونه ويدعونهم في السرّاء والضراء، "فأمّ مريم" جعلت من دعائها نذرا عليها في أن تحب مولودها لخدمة بيت المقدس شكرا لله تعالى على فضله.

- حوار "زكريا" و"مريم": كان بسبب ما كان يلقاه "زكريا" عليه السلام من رزق وافر، فأكهة وطعام، كلّما دخل على "مريم" في مكان عبادتها، ممّا حمّله على السؤال ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

- حوار "زكريا" مع ربه: كان بسبب عدم حصوله على الذرية وقد شاب شعره وضعف جسده، فتوجّه لله عزّ وجلّ مترجيا الحصول على الولد. ولما لم يتيقن بأنّ الله قد رزقه ولدا هو في بطن زوجته طلب إشارة من الله ليتأكد من الأمر، فأجابه الله بأنّه سيصبيه البكم ولا يستطيع التحدّث مع أحد، فجاء أمره بالتسبيح طوال الليل والنهار⁴⁴.

- حوار "مريم" مع ربّها: كان بسبب ما بشرتها به الملائكة من أنّ الله تعالى قد اختارها من بين كلّ النساء وطهرها من كلّ عيب وجعلها من الصّديقين، كما بشرها "بعيسى" عليه السلام نبيا من أنبياء الله. ونظرا لغرابة الأمر في حصول المولود بكلمة من الله بلا واسطة أب نراها تدخل في حوار مع الله؛ إذ كيف يأتيني الولد وأنا لست بذات زوج؟⁴⁵ فكان جوابه تعالى ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۖ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

2- حوار الجماعة: وهو كلام بين أكثر من اثنين قصد الإقناع أو الإرشاد أو التبليغ. ومن نماذجه:

- حوار "عيسى" مع قومه: ينصحهم ويرشدهم ويدعوهم إلى الإيمان برسالته وإجابة دعوته، ومع كلّ البراهين والمعجزات التي أيده الله بها فإنّ الكثير من بني اسرائيل لم يؤمنوا به وقد عزموا على قتله، فنجاه الله منهم ورفعهم إلى السّماء.

وهكذا نلاحظ أنّ ضرب الحوار لم تكن واحدة، ثمّ إنّ أطراف الحوار لم تكن من جنس واحد، بل تعدّدت واختلّفت أجناسها. كما نلاحظ أيضا ذلك الاختلاف الحاصل في المنهج الخاص بعرض الحوار، الذي تراوح بين عرض الأحداث عرضا مطنبا مثل حوار "امرأة عمران" مع ربّها، وحوار "زكريا" مع ربه، إلى عرض الأحداث عرضا موجزا استغنى فيه عن ذكر التفاصيل مثل حوار "زكريا" و"مريم".

2-2-2- البعد الإقناعي للحوار: إذا كان الحوار من الأساليب التعبيرية في القصّة، يرتبط ارتباطا وثيقا بتحديد معالم الشخصيات، وعلاقتها فيما بينها بتحديد كفاءات اتّصالها، أو علاقتها فيما بينها وبين خالقها، ففي هذا الإطار تُظهر لنا القصّة الأولى نموذجا حواريا بين "امرأة عمران" وربّها. وهو حوار تأديبي في مخاطبة الإله؛ حيث نذرت لعبادته وطاعته ما كانت تحمله في بطنها أملا في قبول ذلك منها، لذلك نراها أتبعته دعائها بقولها ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾؛ أي السميع لدعائي العليم بنيتي⁴⁶. من باب إخلاص الدعاء لله. كما يمكن النّظر إليه من باب تقديم حجّة للشخصية. ولكن لما وضعتها أنثى مع اختزال الحيز الزماني الذي دلّنا عليه السياق المقاميّ للآية ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِنِ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمِيئُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ

وَدُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ (آل عمران)، تتوجّه بنداء ربّها مرة أخرى من باب التّحسّر والاعتذار، و«إنّما قالت هذا لأنّه لم يكن يقبل في النذر إلاّ الذكور»⁴⁷ وهنا ساهم الحوار في التعبير عن مشاعر الشخصية. ونظرا لإخلاصها في الدّعاء، ورغبتها الشّديدة في الإيفاء بالنذر يأتي الجواب الإلهي لها مشقعا بالقبول لأنّه تعالى قبلها بقبول حسن وأنبتنا نباتا حسنا. فالحوار هنا ساهم في تقديم ملامح الشخصية أي شخصية "مريم" العابدة التّقيّة في علاقتها الإيمانيّة برّبها. وهي ذات العلاقة التي نراها تتجلّى في حوار "زكريا" و"مريم" ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران)؛ حيث يظهر لنا هذا الحوار جوانب بارزة عن شخصية "مريم" المرأة الصالحة في علاقتها الإيمانيّة برّبها، إذ نراها لم تكتف بقولها ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ بل أتبع الخطاب بـ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ مع ما يحيل إليه من مقاصد ضمنيّة تعكس المعرفة الدّقيقة بالله، والإيمان المطلق بقدرته، والأكيد أنّ "مريم" ما كانت لتكون كذلك لولا اختيار الله لها بدءاً بأن ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.

وفي حوار "زكريا" مع ربّه تتجلّى لنا كذلك ضروب من ملامح الشخصية النّبويّة التي وإن ضاقت بها السبيل توجّهت لخالقها بالدّعاء والرّجاء مع يقين الإجابة كونه وحده سميع الدّعاء. كما يتجلّى لنا موقفه من الحدث العظيم الذي بشرته به الملائكة، ممّا حمله على السّؤال البعيد عن الإنكار، كيف لا وهو الأدري أنّ ربّه سميع الدّعاء يفعل ما يشاء. في حين يعكس خطاب الملائكة "لمريم" موقفها هي الأخرى من ذلك الحدث المعجز الذي بشرتها به، ممّا جعلها هي الأخرى في موقف المتسائل المتأدّب مع خالقه.

كما يُظهِر لنا حوار "عيسى" عليه السّلام مع قومه تلك الشخصية النّبويّة التي تعمل على تبليغ رسالة ربّها والدّعوة له بالنّصح والإرشاد.

وهكذا كان الحوار ملائما للشخصيّة عكس صدقها ونمط تفكيرها، لأنّه نابع أصلا من تصوير الشخصيات في حياتها الطّبيعيّة، كما كان مناسبا للموقف مندجما في صلب القصة، لذلك نراه قد حقّق فائدته الفنيّة باعتباره من سمات الوحدة الفنيّة في القصة القرآنيّة⁴⁸.

والملاحظ أنّ أسلوب الحوار بقدر ما ساهم في رسم حدود الشخصية وإبراز معالمها بقدر ما كان له دور في تحديد مسار الأحداث المرتبطة بالشخصيات، أو في مسار السرد عامة وخلق الأحداث وتواليها⁴⁹. لا أدلّ على ذلك من الحوار الذي جرى بين "زكريا" عليه السّلام و"مريم" الذي جعل الأحداث تتخذ مجرى آخر. والأمر سيان في حوار "عيسى" مع قومه الذي جعل القوم ينقسمون على أنفسهم إلى فئتين احدهما مؤمنة وأخرى كافرة. وما يصدق على هذين الضّربين من الحوار يمكن تعميمه على البقيّة.

وإذا كان يمكن للحوار أن يمثّل المشهد القصصي كلّ⁵⁰ فإنّنا نلاحظ هنا أنّ حوار "امرأة عمران" مع ربّها، وحوار "زكريا" مع ربّه، وحواره مع "مريم"، وحوار "مريم" مع ربّها، وحوار "عيسى" مع قومه قد شكّل المشهد القصصي كلّ، الذي توزّع على مشاهد صاغتها تلك القصص المتمازجة.

وإذا كانت تلك النّماذج القصصيّة ذات أبعاد إقناعيّة تأثيريّة – كما سبقت الإشارة – فإنّ الحوار قد شكّل عنصرا أساسيا في بناء القصة القائمة على المحاجة، كيف لا وهو عامل من عوامل التشويق لما فيه من تباين وتنوع

في الأسلوب، الذي تراوح بين التقرير والإخبار (حوار "امرأة عمران" مع ربّها) والحجاج والترغيب (حوار "زكريا" مع ربّه، وحوار "مريم" مع ربّها) والوعد والوعيد (حوار "عيسى" مع قومه). لذلك تنوّعت أغراض الحوار بين بيان نوازع الإيمان، وصراع النفس، وبين محاربة الطغيان⁵¹.

ومن جهة أخرى هناك سمة فنيّة تطبع أسلوب الحوار في هذا النموذج القصصي تتمثل في الانتقال من الغيبة إلى الحضور أو العكس، كما يظهر في قصة "زكريا" مثلا ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۗ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۗ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ۗ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا ۗ وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾ (آل عمران). فهذا النموذج القصصي يعكس تنوعا في أسلوب القص الذي تراوح بين الغيبة ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ والحضور ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۗ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ليعود إلى الغيبة ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ ثم الحضور ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾. مع ما يستتبع ذلك من تنشيط الذهن في استحضار الشخصيات الغائبة، أو المسند إليها الخطاب.

إذا أمعنا النظر في مختلف أصناف الحوار التي نعثر عليها في هذه النماذج القصصية يمكن أن نلاحظ الدور المعزى للحوار في التّفاذ إلى جوهر الأحداث أو مغزى القصة، أو بتعبير آخر كمحور يستقطب مضمون القصة الدال على كرامة الله "آل عمران" بجملة من المعجزات التي تثبت كمال قدرته تعالى.

وإذا كان للحوار جملة تلك القيم الفنيّة المتمثلة في رسم معالم الشخصيات، والكشف عن طبيعتها، وإضفاء الحيويّة على مسار السرد، وتطوير الأحداث، وبسط الموضوع، والإبانة عن الغرض العام للقصة، فإنّه ساهم كذلك في إضفاء الواقعيّة على القصة⁵²؛ بتقديم الملفوظ وكأنّه وثيقة لفظيّة من خلال بعث الحركة في المشاهد المقصودة. وتلك سمة من أبرز سمات القصص القرآنيّ، فقد «نقل القرآن المسألة من حكاية تحكى إلى واقعة تشاهد، ومن رواية تروى إلى شخوص حيّة تتحرّك، وتحوّل القارئ إلى مشاهد يرى ما يدور أمامه. ولا يخفى ما لهذه الطّريقة من تأثير»⁵³. فالقارئ للقصة لا يستحضرها على أساس أنّها أحداث تاريخيّة عفى عنها الزمن، ولكن يستحضرها كمشاهد واقعيّة مجسّدة في ذهنه عبر صور نابضة بالحركة والحيويّة، يتدخل الحوار في رسمها.

وإذا كان الحوار هنا حوار تاريخي من حيث المكان والزّمان والأحداث والشخصيات، فهو حوار واقعي مقصود. وواقعيّة الحوار - كسمة تطبع الحوار في القصص القرآنيّ - ينظر إليها كعامل حجاجي، يضاف إليها مصداقيّة الحوار، كون الحوار القرآنيّ كلّ صدق، لا مجال فيه لسيطرة الكذب والافتراء، أو طغيان الوهم والخيال في تصوير الأحداث. وهذا ضرب من ضروب الصّدق الفنيّ في القصص، الذي يظهر «في تصويره للشخصيّة من خلال الحوار، تصويرا حيّا، وفي دقّة نقلها لمشاعرها، وتعبيره عن مواجهتها وأحاسيسها، وهذه وظيفة الفن»⁵⁴.

وعليه ينظر للحوار في هذا السياق على أنّه حوار واقعي، خاضع لمستوى إدراك الشخصيّة وطبيعة تفكيرها.

انطلاقاً من حديثنا عن أسلوب الحوار في هذه النماذج القصصية فقد تجلّت لنا أهميته في نقل القارئ إلى حياة القصة، أو لنقل اندماجه التام مع حوادثها وتفاعله معها (كيف كان شعور "امرأة عمران" وهي تضع أنثى، كيف كان شعور "زكريا" عليه السلام وهو يبشّر "بيحيى"، كيف كان شعور "مريم" وهي تبشّر بالولد دون أب..). كما أمكنه أن يظهر التفاعل التام الحاصل بين شخصيات القصة والأحداث.

خاتمة

سلك القرآن الكريم سبلا تواصلية مختلفة لهداية الناس ودعوتهم، نذكر من ذلك أسلوب القصّ والحوار. لقد احتلّت القصة أهمية كبيرة في الخطاب القرآني على أساس أنّها إحدى التقنيات الهامة في التوجيه والتأثير. فبما أنّ القرآن رسالة ربّانية لهداية الخلق، فقد وجهت القصة لخدمة تلك الغاية الربّانية. ولكن الالاف للنظر أنّ القصص القرآنية وإن تناولت وقائع سابقة، إلا أنّها لم ترد على هيئة السرد التاريخي المجرد، لأنّها طعمت بجمالية فنية ذات أبعاد تأثيرية. وعليه فالحقيقة التي تثبتها وتقدّمها القصص هي حقيقة الإيمان وما ينجم عنها من تحقيق سبل السعادة في الدارين، وما يقابله من حقيقة الكفر، وما ينجم عنها من خزي وعذاب؛ حيث عملت تلك القصص على تربية النفوس وتهذيبها، وعلى تثبيت العقيدة الإلهية، بما نهجته لنفسها من سبل دينية.

أما فيما يخصّ الحوار، فقد كان له هو الآخر أبعاداً تأثيرية باعتباره من الأساليب التعبيرية ساهم في رسم معالم الشخصية وتحديد مسار الأحداث المرتبطة بها، وإضفاء الواقعية على القصة. والالاف للنظر أنّ الحوار قد مثل المشهد القصصي كلّ، كما ساهم في بناء القصة، ممّا جعله ينطوي على أبعاد إقناعية.

الهوامش:

- 1- ينظر: محمد علي الصّابوني، صفوة التفاسير، الجزء 01، دار الضياء، قسنطينة، قصر الكتاب، البلدة، دط، الجزائر، ص 183.
- 2- ينظر: المرجع نفسه، ص 182.
- 3- عبد الله معوش، كيف تفنّع الآخرين، دار العاصمة، الرياض، ط 1، 1413هـ، ص 26.
- 4- أبو الفضل جمال الدين بن مكرم بن منظور، لسان العرب، المجلد الثاني، دار صادر، ط 04، بيروت، لبنان، 2005، مادة أثر.
- 5- محمد علي الصّابوني، صفوة التفاسير، الجزء 01، ص 349.
- 6- ينظر: محمد علي الصّابوني، صفوة التفاسير، الجزء 01، ص 198، 199.
- 7- ينظر: المرجع نفسه، ص 202.
- 8- المرجع نفسه، ص 350.
- 9- المرجع نفسه، ص 349.
- 10- ينظر: المرجع نفسه، ص 352.
- 11- ينظر: المرجع نفسه، ص 199، 200.
- 12- محمد سيد طنطاوي، القصة في القرآن الكريم، الجزء الأول، نضمة مصر، ط 01، القاهرة، 1996، ص 92.
- 13- محمد علي الصّابوني، صفوة التفاسير، الجزء 01، ص 354.
- 14- ينظر: محمد سيد طنطاوي، القصة في القرآن الكريم، ص 88.
- 15- محمد علي الصّابوني، صفوة التفاسير، الجزء 01، ص 355.
- 16- المرجع نفسه، ص 356.

- 17 - محمد محمد لقمة، الجوانب الأدبية والبلاغية في القصة القرآنية، رسالة دكتوراه، جامعة الأزهر، 1968، ص 360.
- 18 - المرجع نفسه، ص 359.
- 19 - ينظر: المرجع نفسه، ص 361.
- 20 - ينظر: محمد علي الصّابوني، صفوة التفاسير، الجزء 01، ص 204، 207.
- 21 - السيّد عبد المقصود عسكر، القصص القرآنيّ إقناع وإبداع، دار البشير للثقافة والعلوم، ط 01، طنطا، 2000، ص 99.
- 22 - محمد علي الصّابوني، صفوة التفاسير، الجزء 01، ص 201.
- 23 - ينظر: محمد يوسف نجم، فنّ القصّة، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط 05، 1966، ص 21.
- 24 - السيّد عبد المقصود عسكر، القصص القرآنيّ إقناع وإبداع، ص 106.
- 25 - ينظر: محمد محمد لقمة، الجوانب الأدبية والبلاغية في القصة القرآنية، ص 347.
- 26 - السيّد عبد المقصود عسكر، القصص القرآنيّ إقناع وإبداع، ص 107.
- 27 - محمد محمد لقمة، الجوانب الأدبية والبلاغية في القصة القرآنية، ص 363.
- 28 - سيّد قطب، مشاهد القيامة في القرآن، دار الشّروق، ط 16، القاهرة، 2006، ص 229.
- 29 - ينظر: سيّد قطب، التّصوير الفنّي في القرآن الكريم، دار الشّروق، ط 07، القاهرة، 1993، ص 117.
- 30 - السيّد عبد المقصود عسكر، القصص القرآنيّ إقناع وإبداع، ص 07.
- 31 - المرجع نفسه، ص 11.
- 32 - محمد سيد طنطاوي، القصّة في القرآن الكريم، الجزء الأوّل، ص 07.
- 33 - ينظر: عزّة الغنّام، الفن القصصيّ العربيّ القديم من القرن الرابع إلى القرن السابع، الدّار الفنّيّة، دط، القاهرة، 1991، ص 111، 112.
- 34 - السيّد عبد المقصود عسكر، القصص القرآنيّ إقناع وإبداع، ص 14.
- 35 - محمد وهدان، الإعجاز الإعلامي في القصص القرآنيّ، دراسة تطبيقية على سورة النمل، أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، ط 01، القاهرة، 2006، ص 11.
- 36 - سيّد قطب، التّصوير الفنّي في القرآن الكريم، ص 117.
- 37 - السيّد عبد المقصود عسكر، القصص القرآنيّ إقناع وإبداع، ص 14.
- 38 - ينظر: رشاد رشدي، فنّ القصّة القصيرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط 02، 1964، ص 11، 12.
- 39 - عبد الرّحمن النّحلاوي، أصول التّربية الإسلاميّة وأساليبها، دار الفكر، ط 01، دمشق، 2001، ص 257.
- 40 - المرجع نفسه، ص 257.
- 41 - إسماعيل إبراهيم السامرائي، الحوار في القرآن الكريم، رسالة ماجستير، كليّة الشريعة، جامعة بغداد، ص 29.
- 42 - عبد السلام أحمد، الدّراسة الأدبية لنصوص قرآنية بين النظرية والتّطبيق، دار الرّفاعيّ، ط 01، سوريا، 2005، ص 92.
- 43 - فاتح عبد السلام، الحوار القصصيّ تقنياته وعلاقاته السردية، المؤسّسة العربيّة للدراسات، ط 01، بيروت، 1999، ص 21.
- 44 - ينظر: محمد علي الصّابوني، صفوة التفاسير، الجزء 01، ص 200.
- 45 - ينظر: المرجع نفسه، ص 202.
- 46 - ينظر: محمد علي الصّابوني، صفوة التفاسير، الجزء 01، ص 198.
- 47 - المرجع نفسه، ص 198.
- 48 - ينظر: محمد حسين الدّالي، الوحدة الفنّيّة في القصّة القرآنية، مكتبة أمون، ط 01، عمان، 1993، ص 245.
- 49 - ينظر: محمد يوسف نجم، فنّ القصّة، ص 117.
- 50 - ينظر: عبد الكريم الخطيب، القصص القرآنيّ في منظوقه ومفهومه، دار المعرفة، ط 02، بيروت، 1975، ص 124.
- 51 - ينظر: عبد الحليم حنفي، أسلوب المحاورّة في القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 02، القاهرة، 1958، ص 67، 68.
- 52 - ينظر: حسين القبّاني، فنّ كتابة القصّة، مكتبة المحتسب، ط 02، عمان، 1974، ص 95.
- 53 - السيّد عبد المقصود عسكر، القصص القرآنيّ إقناع وإبداع، ص 40.
- 54 - التّهامي نقرّة، سيكولوجيّة القصّة في القرآن الكريم، الشركة التّونسيّة، ط 01، تونس، 1974، ص 248.

المراجع :

- 1- أبو الفضل جمال الدين بن مكرم بن منظور، لسان العرب، المجلد الثاني، دار صادر، ط04، بيروت، لبنان، 2005، مادة أثر.
- 2- اسماعيل ابراهيم السامرائي، الحوار في القرآن الكريم، رسالة ماجستير، كلية الشريعة، جامعة بغداد.
- 3- التهامي نقرة، سيكولوجية القصة في القرآن الكريم، الشركة التونسية، ط01، تونس، 1974.
- 4- حسين القباني، فن كتابة القصة، مكتبة المختسب، ط02، عمان، 1974.
- 5- رشاد رشدي، فن القصة القصيرة، مكتبة الأجلو المصرية، ط02، 1964.
- 6- السيد عبد المقصود عسكر، القصص القرآني إقناع وإبداع، دار البشير للثقافة والعلوم، ط01، طنطا، 2000.
- 7- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن الكريم، دار الشروق، ط07، القاهرة، 1993.
- 8- سيد قطب، مشاهد القيامة في القرآن، دار الشروق، ط16، القاهرة، 2006.
- 9- عبد الحليم حنفي، أسلوب المحاورة في القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط02، القاهرة، 1958.
- 10- عبد الرحمن التحلاوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها، دار الفكر، ط01، دمشق، 2001.
- 11- عبد السلام أحمد، الدراسة الأدبية نصوص قرآنية بين النظرية والتطبيق، دار الرفاعي، ط01، سوريا، 2005.
- 12- عبد الكريم الخطيب، القصص القرآني في منطوقه ومفهومه، دار المعرفة، ط02، بيروت، 1975.
- 13- عبد الله معوش، كيف تقنع الآخرين، دار العاصمة، الرياض، ط1، 1413هـ.
- 14- عزّة الغنّام، الفن القصصي العربي القلم من القرن الرابع إلى القرن السابع، الدار الفنية، دط، القاهرة، 1991.
- 15- فاتح عبد السلام، الحوار القصصي تقنياته وعلاقاته السردية، المؤسسة العربية للدراسات، ط01، بيروت، 1999.
- 16- محمد حسين الدالي، الوحدة الفنية في القصة القرآنية، مكتبة أمون، ط01، عمان، 1993.
- 17- محمد سيد طنطاوي، القصة في القرآن الكريم، الجزء الأول، نخصة مصر، ط01، القاهرة، 1996.
- 18- محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، الجزء 01، دار الضياء، قسنطينة، قصر الكتاب، البلدية، دط، الجزائر.
- 19- محمد محمد لقمة، الجوانب الأدبية والبلاغية في القصة القرآنية، رسالة دكتوراه، جامعة الأزهر، 1968.
- 20- محمد وهدان، الإعجاز الإعلامي في القصص القرآني، دراسة تطبيقية على سورة النمل، أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، ط01، القاهرة، 2006.
- 21- محمد يوسف نجم، فن القصة، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط05، 1966.